المبحث الثالث

منهج ابن عادل في الاستدلال

بعد الاستقراء التام والبحث الواسع في تفسير الإمام ابن عادل وجدت أنه قد جمع بين المنهجين السابقين منهج القرآن الكريم ومنهج المتكلمين في استدلاله على وجود الباري تعالى و تقدس فنرى أنه قد استدل بدليل الخلق والاختراع ودليل الحدوث في آن واحد وذلك لأن الدليلين متفقان في المعنى والمضمون مختلفان في الاصطلاح لأن المتكلمين عملوا بهذه الاصطلاحات عندما حدثت الهجمة الشرسة من قبل الفلاسفة الملحدين للطعن والنيل من الإسلام والمسلمين فحاججوهم بأدلة عقلية رشيدة وبنفس المصطلحات التي وضعها أولئك الملحدون حتى استطاع عمالقة الإسلام أهل هذا الفن والاختصاص من تفنيد ادعاءاتهم وأباطيلهم حول هذا الدين الحنيف

فإن دليل الخلق والاختراع يعتمد على إثارة الفكر البشري للتعرف على جواهر الأشياء وأحداثها وخلقها واختراعها وكذلك دليل الحدوث فإن مضمونه أن العالم حادث كل حادث لابد له من محدث إذا أنهما قد اتفقا في المعنى والمضمون ولقد مثل الإمام ابن عادل بأمثلة سأتناولها بشكل تفصيلي في بحثي هذا.

أولا :- استدلاله بدليل الخلق والحدوث،

ويستند إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[2].

فهذان النصان استشهد بهما واستند عليهما في صحة استدلالاته بهذا الدليل ثم يفصل القول في النص الأول فيقول ابن عادل: ((هذه الآية تدل على الصانع القادر الفاعل المختار ،سأل بعض الدهرية الشافعي رضي الله عنه ما الدليل على الصانع؟ فقال: ورقة الفرصاد[3] طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم. قال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم ، ويأكلها النحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البعر ، وتأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذي جعلها كذلك مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا ذلك وآمنوا على يديه، وكانوا سبعة عشر.

---

١ سورة البقرة ، الآية : ٢١-٢٢.

٢ سورة البقرة ، الآية : ١٦٤.

٣ الفرصاد : شجرة التوت (التكّي الاحمر) : مختار الصحاح : ٤٩٨ ، مادة فرص.

وسئل أبو حنيفة – رضي الله عنه – عن الصانع فقال: الوالد يريد الذكر فيكون أنثى، وبالعكس فيدل على الصانع. وتمسك أحمد بن حنبل بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز ، ثم انشقت الجدران، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل؛ عنى بالقلعة البيضة ، وبالحيوان الفرخ وقال آخر عرفت الصانع بنحلة))[1].

لقد فصل في النصف الثاني في استدلالاته بدليل الخلق على وجود الصانع فقد استدل بجريان الفلك في البحر على وجود الصانع ، حيث يقول : ((فأما كيفية الاستدلال بذلك فهو أن السفن و إن كانت من تركيب الناس إلا أنه تعالى هو الذي خلق الآلات التي يمكن بها تركيب هذه السفن))[2]. واستدل أيضا بإنزال الماء من السماء على وجود الصانع وكذلك إحياء الأرض بعد موتها وكذلك حدوث الدواب فهي آيات دالات على وجود الله سبحانه تعالى.

ثانيا :- دليل العناية والتدبير:-

لقد استدل الإمام ابن عادل بهذا الدليل في إثبات وجود الصانع وذكر قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[3]. تأكيدا لهذا الدليل ، حيث يقول فهو يدبرهم بالإيجاد والإعدام والإحياء، والإماتة ،والاعتماد ، والانقياد، ويدخل فيه إنزال لوحي،وبعث الرسل وتكليف العباد ، وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة ، لأن هذا العالم من أعلى العرش إلى أطباق الثرى يحتوي على أجناس

[1] اللباب ٤١٤/١
[2] اللباب : ١٢٣/٣-١٢٨
[3] سورة يونس ، الاية : ٣

وأنواع لا يحيط بها إلا الله تعالى . والدليل المذكور على تدبير كل واحد بوصفه في موضعه وطبيعته ، ومن المعلوم أن من اشتغل بتدبير شيء ، فإنه لا يمكنه تدبير شيء آخر، فإنه لا يشغله شأن عن شأن ، وإذا تأمل العاقل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجسام ويدبر عالم الأرواح ، ويدبر الكبير كما يدبر الصغير، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير عن تدبير ، وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته، وصفاته ، وعلمه ، وقدرته غير مشابه للمخلوقات ، والممكنات[1]. . ولقد مثل ابن عادل لدليل العناية والتدبير بأمثلة متنوعة وتفصيلات عقلانية رشيدة حيث قال: واعلم أن عجائب حكمة الله تعالى في الخلق والهداية بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة [2]

أحدها: أن الطبيعي يقول: الثقيل هابط، والخفيف صاعد، وأثقل الأشياء الأرض ثم الماء، وأخفها النار ثم الهواء، فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والأرض أسفلها، ثم أنه تعالى قلب هذا في خلقة الإنسان؛ فجعل أعلى الأشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما في البدن، وهما بمنزلة الأرض، ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء، وجعل تحته النفس التي هي بمنزلة الهواء ، وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب، وهي بمنزلة النار، فجعل مكان الأرض من البدن الأعلى وجعل مكان النار من البدن الأسفل ليعلم أن ذلك بتدبير القادر الحكيم لا باقتضاء العلة والطبيعة.

[1] اللباب: ٢٣٩/١١-٢٤٠
[2] اللباب: ٢٦٧/١٣-٢٦٩

وثانيها: أنك إذا نظرت إلى عجائب النحل في تركيب البيوت المسدسة وقسمتها، وعجائب أحوال البق والبعوض والنمل في اهتدائها إلى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لا يمكن إلا بإلهام مدبر عالم بجميع المعلومات.

وثالثها: أنه تعالى الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم، والمشروب، والملبوس، والمنكوح، ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها فيستخرجون المعادن من الجبال، واللآلىء من البحار، ويركبون الأدوية والترياقات النافعة ، ويجمعون بين الأشياء لمختلفة، ويستخرجون لذائذ الأطعمة، فدل ذلك على أنه تعالى هو الذي خلق الأشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون إلى كيفية الانتفاع بها، وليس هذا مختصاً بالإنسان بل عام في جميع الحيوان ، فأعطى الإنسان إنسانة، والحمار حمارة، والبعير ناقة هداه الله لها ليدوم التناسل، وهدى الأولاد لثدي الأمهات، بل هذا غير مختص بالحيوان ، بل هو حاصل في أعضائها، فخلق اليد على تركيب خاص، وأودع فيها قوة الأخذ، وخلق الرجل على تركيب خاص، وأودع فيها قوة المشي، وكذا العين، والأذن ، وجميع الأعضاء، ثم ربط البعض بالبعض على وجه يحصل من ارتباطها مجموع واحد هو الإنسان[1].

وإنما دلت هذه الأشياء على وجود الصانع ، لأن اتصاف كل جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة أعني التركيب والقوة الهادية إما أن يكون واجبا أو جائزا ، والأول باطل لأنا نشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكة عن ذلك التركيب والقوى ، فدل على أن ذلك جائز ، والجائز لا بد له من مرجح، وليس

---

١ ينظر : اللباب : ١٣/٢٦٧-٢٦٩

ذلك المرجح هو الإنسان، ولا قواه ، لأن فعل ذلك يستدعي قدرة عليه ، وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد ، والأمران نائيان عن الإنسان ، لأنه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة ، وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الأعضاء ومصالحها إلا القدر القليل؛ فلا بد وأن يكون المتولي لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر، وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لأن الأجسام متساوية في الجسمية ، واختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزا فيفتقر إلى سبب آخر ، والدور والتسلسل محالان ، فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة إلى مدبر ليس بجسم ولا جسماني ، ثم تأثير ذلك المؤثر إما أن يكون بالذات أو بالاختيار ، والأول محال لأن الموجب لا يميز مثلا عن مثل ، وهذه الأجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية ، وبعضها بالحيوانية؟ فثبت أن المؤثر والمدبر قادر ، والقادر لا يمكنه فِعلَ هذه الأفعال العجيبة إلا إذا كان عالما، ثم إن هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لا بد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وصفاته ، وإلا لافتقر إلى مدبر آخر ، ولزم التسلسل، وهو محال ، وإذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته، والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض،فوجب أن يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما ، وقادرا على كل ما صح أن يكون مقدورا ، فظهر بهذه الدلالة التي تمسك بها موسى وقررها احتياج العالم إلى مدبر ليس بجسم ولا جسماني ، وهو واجب الوجود في ذاته

وصفاته عالم بكل المعلومات ، قادر على كل المقدورات ، وذلك هو الله سبحانه وتعالى[1].

وبعد هذا التفصيل الذي ذكره ابن عادل لدليل العناية والتدبير يبين أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان:

إحداهما: الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك، والشمس، والقمر والكواكب.

والثاني: الموجودات الحادثة المتغيرة وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى ،والهرم بعد الصحة، وكون الأحمق في أهنأ العيش، والعاقل في أشد الأحوال فهذا النوع من الموجودات ، دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة.[2].

وبعد هذا العرض لهذه المناهج واستدلالاتها على وجود الله تعالى يترجح عندي والله أعلم أن منهج القرآن الكريم في الاستدلال هو الأنفع والأفضل، وأنه صالح لكل زمان. ولا شك أن القرآن الكريم عرض لنا صورة رائعة تلفت الأنظار إلى التفكر في مخلوقات الله وأفعاله وما فيها من إبداع ونظام وتدبير محكم وعناية مستمرة. والذي يطلع على هذه الآيات القرآنية يرى أن مضامينها تهز العقول والقلوب وتأخذ بها إلى تأمل في حقائق هذا الكون وما فيه من تدبير وعناية مما لا تجد له أثراً في الكتابات الجدلية الجافة عند الكثير من علماء الكلام.

ورغم ترجيحي وميولي لمنهج القرآن الكريم في الاستدلال إلا أنه لا يمكن لمنصف أن يغبن حق المتكلمين وينكر إبداعاتهم وأبحاثهم الكلامية في الدفاع عن العقيدة الإسلامية حتى أنهم قد أدهشوا عقول الملحدين والفلاسفة المستشرقين من أصحاب العقائد الزائفة.لقد كانت لهؤلاء المتكلمين جهود طيبة ومباركة في هذا

---

١ ينظر : اللباب : ٢٦٩/١٣.

٢ ينظر : اللباب: ٢٤٠/١١.

الميدان خصوصا بعد اتساع الفتوحات الإسلامية واصطدام مبادئ الإسلام بفلسفات تلك البلاد المفتوحة فكان لابد لعلماء الإسلام أن يردوا وأن يقاوموا أعداء العقيدة بنفس الأسلحة التي وجهت عليهم وأن يستخدموا برهان العقل في الرد على أعدائهم والذي ينظر ويدقق النظر في هذه المصطلحات الكلامية ليجدها مقتبسة ومستخلصة من القرآن الكريم والسنة المطهرة إلا أنها تختلف في الصياغة والاصطلاح ولا يمكن لأحد أن يقارن أو أن يشبه المعتزلة والأشاعرة في هذا المجال إذ أن المعتزلة تشددوا كل التشدد في استدلالهم بالدليل العقلي لأنه يعتبر هو الأساس عندهم بل أنه إذا تعارض مع الدليل السمعي نجدهم يقدمون الدليل العقلي على الدليل السمعي وهذه جرأة كبيرة لا نجدها في كتب الأشاعرة بل على العكس فالذي يطلع على كتبهم ومناهجهم يقتنع ويجزم بأنهم يجعلون الدليل العقلي خادما للدليل السمعي وكانوا يستدلون بالأدلة السمعية للتوصل بها إلى أدلة العقل وفي هذا المقام يذكر لنا فضيلة أستاذنا الدكتور محمد رمضان رأيه بوضوح وصراحة إذ يقول: ((ولا يمكن أن نأخذ على المعتزلة جرأتهم هذه على الأدلة السمعية وغلوهم المشين إلا أن المتكلمين من الأشاعرة لا أرى غبارا على مسلكهم فإنهم يعتبرون العقل خادما للنقل ويأخذون أصول عقائدهم من الأدلة السمعية ولكنهم يدافعون عنها بوسائلهم العقلية الكلامية ، فلذلك لا أرى أنهم يستحقون هذا الهجوم الذي نراه في كتابات ابن تيمية وتلاميذه رحمهم الله جميعا ونفحنا من بركاتهم))[1].

١ الباقلاني وآراؤه الكلامية: ٤١٨.